ظواهر بيانية في الإعجاز القرآني (دراسة تحليلية)

د. إبراهيم الأغبش الأمين عبدالدافع[1]
د. إبراهيم صالح إدريس أبوبكر[2]
م.م عمر نجم عبد محمد القيسي[3]

ملخص البحث

إنَّ معرفة محاور الإعجاز القرآني، تعزز المعرفة للفرد والمجتمع بحقيقة ذلك الكتاب العظيم بوصفه كتاب هداية للعالمين لقوله تعالى: ﴿الم • ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيبَ فِيهِ هُدىً لِلمُتَقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

وتأتى أهمية هذا البحث من أنه يُظهر بعض جوانب الإعجاز البلاغي في سبع صور بلاغية من آي الذكر الحكيم، كما أنّ البحث جمع أشتات من آراء المفسرين و اللغويين و البلاغيين من القدماء و المحدثين في هذا الجانب البلاغي أو ذاك ، ليجمع بين الأصالة و المعاصرة في الدرس البلاغي، إذ تتعدد الصور وتتنوع مظاهر الإعجاز فيه، ومن مظاهر الإعجاز القرآني تلك، ما يتعلق بالأساليب البيانية الرائعة، وفيه وجد المعنيون بالبلاغة ضالتهم المنشودة. ولهذا تهدف هذه الدراسة للوقوف على بعض مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، في ضوء رؤية البلاغيين والمفسرين واللغويين لها، لما كان لهم من فضل السبق والإدراك. وكما يأتي هذا البحث ليجمع بعض مظاهر الإعجاز البياني في بحث مختصر يُشعر القارئ بالمتعة والفائدة في الوقت نفسه مع شيء من التأمل والتدبر. والقرآن الكريم هو المصدر الأساس في استقصاء المادة البحثية، وكتب التفسير مثل الكشاف للزمخشري، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وكتب البلاغة مثل: الإيضاح للقزويني وغيرهم من المصادر الثانوية. وقد اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي الاستقرائي. توصل البحث لنتائج أهمها : أن لحذف الحرف أو ذكره في التعبير القرآني غاية بلاغية يقتضيها الحال وسياق

١- أستاذ مشارك – جامعة الجزيرة – كلية التربية الحصاحيصا – قسم اللغة العربية ودراسات الإسلامية (السودان).
٢- أستاذ مساعد – جامعة الجزيرة – كلية التربية الحصاحيصا – قسم اللغة العربية ودراسات الإسلامية (السودان).
٣- وزارة التربية / المديرية العامة لتربية محافظة ديالى.

النص القرآني، كما أن القرآن الكريم يُرتب الألفاظ ، لتتسق معانيها في نفس المتلقي و حاله مما يجعل أثرها طيباً حيناً و مؤثراً في حين آخر. أنَّ في المخالفة بين اللفظين المتجاورين مراعاة لجرس الكلام ونغمه، وهي سمة جمالية، من خصائص التعبير القرآني الذي تتعانق فيه الأصوات، والتراكيب، والدلالات وهذا من أسرار إعجازه وفصاحته.

المقدمـــــة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، المبعوث شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ،سيد ولد آدم ،وأفصح من نطق بالضاد، و على آله وصحبه أجمعين و التابعين.

وبعد:

فإن من بلاغة القرآن الكريم خطابه العرب باللغة التي يفهمونها، وبالألفاظ التي يألفونها، وبأفانين القول التي يدركون مع موافقة ذلك لمقتضى أحوالهم . و تحدى القرآن الكريم المشككين بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله، فعجز عن ذلك بلغاء العرب ، وأذعنوا لبلاغته وبيانه وشهدوا له بالإعجاز ، وما زال التحدي قائماً لكل من الأنس و الجن ، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود : ١٣].

و كلام الله تعالى في أعلى درجات البلاغة والتأثير في السامعين مطابقاً لحالهم فقال جلَّ وعزّ في الآية المتفردة التي مرّ فيها ذكر كلمة البلاغة في سياق خطاب المنافقين ، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[النساء : ٦٣]. أي: مؤثراً بحسب المفسرين ومن هنا ظهرت أهمية الإعجاز البياني للقرآن بوصفه الأداة الفاعلة في الردّ على الكفار والمنكرين لهذا الكتاب العظيم، والتثبيت لإيمان المؤمنين كي يزدادوا يقيناً فكانت اللغة البليغة علاجاً للنفوس، والأفكار المنحرفة، وحجة بالغة و

أداة مؤثرة في قلب من آمن أو كفر من الناس.

ومن هنا كان مبحث إعجاز القرآن الكريم من أجل و أشرف المباحث اللغوية وأنبلها غاية وأسماها مقصداً، وهو إلى جانب ذلك موضوع يشترك في بحثه علماء الأصول ،كون القرآن الكريم أصل الأدلة الكلية بل هو أهمها؛ ويشترك في بحثه علماء اللغة لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين؛ قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

والعلماء الربانيون هم القادرون على اكتشاف رفعة أسلوبه وتميزه على سائر كلام العرب وعلو شأنه وعظمته، وكذا فإن مبحث الإعجاز يُعدّ من مباحث علوم القرآن ويدخل من جانب آخر في مباحث العقيدة، وما كان القرآن الكريم إلا لغة الوحي الإلهي المتميزة عن لغة البشر بدقة اختيارها وانتقائها ، وعمق دلالتها في حالي الإفراد والتركيب على السواء ، ويجيء هذا البحث ليبن بعض مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم مع بيان الفرق بين مصطلحي الإعجاز القرآني و الإعجاز البياني.

أهداف البحث:

١- توضيح مفهوم الإعجاز القرآني والإعجاز البياني .

٢- دراسة أسلوب القرآن الكريم وإعجازه وبراعة أساليبه البيانية.

٣- إظهار بلاغة التعبير القرآني ومطابقتها الحال والسياق

٤- تحليل الظواهر البيانية في الإعجاز القرآني.

منهج البحث:

قد اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي الاستقرائي وجمعت المادة من المصادر البلاغية والنقدية المتعلقة بالموضوع مع التركيز على كتاب الله عز وجل فهو محور الدراسة.

التعريف بمصطلحي الإعجاز القرآني والإعجاز البياني :

إن الباحث في سر الإعجاز القرآني يجد أن العلماء قد ذهبوا فيه مذاهب شتى في مجالات كبرى منها اللغوي و العلمي والتشريعي ، وهذا يعنى أن الإعجاز البياني يمثل وجهاً من وجوه الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم .

وقد تجلّت آيات القرآن الكريم التي نزلت على خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، بأسلوب مُعجز ومُحكم، أعجزِ الخلق عن الإتيان بمثله، ففي القرآن الكريم جمالٌ، وحلاوةٌ، وطلاوة، وعظمةٌ، وإعجاز يجهله البعض، إلا المتدبر والمتمعن للآيات القرآنية سيشعر الإعجاز البياني، والعلمي، والتشريعي، والغيبي في القرآن الكريم. ويُحاول هذا البحث إظهار جوانب من الإعجاز البياني في مواطن محددة من آي الذكر الحكيم.

وقبل تناول جانب من الإعجاز البياني لابد من أن يقف الباحثون على مفهوم الإعجاز القرآني؛ فالإعجاز لغة:(لفظ من عجز يعجز عجزاً، فهو ضعف. والمعنى: ضعف عن الشيء ولم يقدر عليه، والإعجاز مصدر، وفعله رباعي هو أعجز يعجز إعجازاً واسم الفاعل منه مُعجز)[1].

والإعجاز في الاصطلاح: له عدة تعريفات، منها تعريف الإمام الجرجاني في قوله: ((أنْ يؤدى المعنى بطريق، هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق))[2].

وقال أبو البقاء الكفوي: "إعجاز القرآن: ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته"[3].

وعرفه الزرقاني في مناهل العرفان بقوله: "إعجاز القرآن، إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به"[4].

(١) ابن منظور – جمال الدين بن منظور – لسان العرب – مادة عجز.
(٢) الجرجاني – محمد بن على الجرجاني – التعريفات– ص١٨.
(٣) أبو البقاء الكوفي – الكليات – ص١٤٩.
(٤) الزرقاني – مناهل العرفان – ج٢ ص٢٢٧.

ومنه تعريف الرافعي في قوله: (وإنما الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ، ومزاولته على شدّة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه. فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ، ليس له غير مُدته المحدودة ،بالغة ما بلغت)[1].

فالإعجاز ليس مقصوداً لذاته بل المقصود لازمه وهو إظهار ان هذا الكتاب حق وان الرسول الذي جاء به رسول صدق وحق يجب إتباعه.

والإعجاز القرآني مصطلح يدل على: قصور الجن والإنس على أن يأتوا بمثل القرآن الكريم أو بسورة من مثله ؛ وأن من أعظم وجوه إعجاز القرآن الكريم الإعجاز البياني، و البيان قد يكون معنى خاصاً كما هو الشأن عند علماء البلاغة و قد يكون عاماً ولهذا لابد من الوقوف على معنى البيان في اللغة والاصطلاح .

والبيان لغة: ((ما يبين به الشيء، من الدلالة وغيرها. وبانَ الشيء: اتضح فهو بيّن، واستبان الشيء :ظهر. والبيان الفصاحة واللسن، كلام بين فصيح. البيان الإفصاح مع ذكاء، والبيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من حسن الفهم وذكاء القلب مع اللسن، وأصله الكشف والظهور))[2].

أمّا البيان في الاصطلاح فقد عرّفه السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) بقوله: ((هو معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه))[3].

فالإعجاز البياني؛ ويقصد به: ذلك الترتيب البديع لكلمات القران الكريم في جملها من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة ، ولا تخلو من الإعجاز القرآني سورة على قصرها،

(١) الرافعي ، مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية ، ط١ ، مؤسسة المختار ، القاهرة ٢٠٠٣م ،ص١٤.
(٢) ابن مظور – جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٣ه ، مادة بين.
(٣) السكاكي – محمد بن يعقوب السكاكي – مفتاح العلوم – ص٧٧.

بل هو في كل آية من الآيات ، بل في كل كلمة وحرف مع إقناع و إمتاع لكل الطبائع البشرية على اختلافها. ولبيان جانب من هذا المظهر الإعجازيّ في القرآن الكريم لابد من الإشارة لجوانب من مظاهر هذا الإعجاز في سبعة مواطن وهي:

الأول: واو الثمانية:

اقتضت حكمة الباري جل جلاله الاستغناء عن تفاصيل العدد في كثير من آيات القرآن الكريم، ويظهر ذلك جلياً عند قصة أصحاب الكهف وعددهم، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

ففي قوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم ندرك السرّ البياني للحرف (واو العطف) بعد الاستغناء عنه مع عدَّة الأربعة والستة والمجيء به مع الثمانية حتى أطلق عليه العلماء (واو الثمانية) ذلك السرّ الذي يردفه الله تعالى بذكر العلم فيقول تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ . .﴾، وفي هذا يذكر عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) أنه من أولئك القليل[1]. فإننا نلحظ مقابلة لطيفة مع ذكر العددين الأولين والرجم بالغيب ﴿رجماً بالغيب﴾ مع من قال بذلك أولاً، وذكر العلم مع القول الأخير ؛ ومن هنا يبرز أثر الواو العاطفة في دفع الوهم وإزالة الغموض عن ذلك العدد في رؤية يتفق فيها البيان مع الوحي لإظهار مزية من مزايا الإعجاز في القرآن بات أمرها يبعث على الإعجاب بروعة الأسلوب القرآني في السرد القصصي .

وجاء في تفسير ابن كثير أن قوله تعالى: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾[الكهف: ٢٢]، الجملة من المبتدأ وخبره صفة سبعة بزيادة الواو، وقيل تأكيد أو دلالة على لصوق الصفة بالموصوف ووصف الأولين بالرجم دون الثالث دليل على أنه مرضي وصحيح[2].

(١) ابن كثير – تفسير ابن كثير – ج٣ ص ٧٩.

(٢) ابن كثير – تفسير بن كثير – ج٣ ص٧٩.

وفي تفسير القرطبي نجد توضيحاً لهذه الواو بقوله: ((ولم يذكر الاسم الثامن بالواو، وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة إنما ذكر الواو في قوله سبعة ثامنهم لينبه على ان هذا العدد هو الحق، وانه مباين للأعداد الأخرى التي قال فيها أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين ﴿رجماً بالغيب﴾ ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدم فيها بشيء، فكأنه قال لنبيه هم سبعة وثامنهم كلبهم، وقال ابن جريح ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية وجعلا قوله تعالى ﴿وثامنهم كلبهم﴾ أي: صاحب كلبهم، وهذا مما يقوي طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا، وقال القشـــري: لم يذكر الواو في قوله ﴿رابعهم سادسهم﴾ ولو كان بالعكس لكان جائزاً، فطلب الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلف بعيد، وهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤])).

قال الأنباري: ((أما سبعة وثامنهم كلبهم، فإنما جاء بالواو ولم يجيء به على الصفة كالعدد قبله، لان السبعة أصل المبالغة في العدد، كما كانت السبعين كذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠])).

ولو جاء بالواو في (ثلاثة رابعهم كلبهم) لكان جائزاً، وذهب بعض النحويين إلى أن التقدير فيه، ثلاثة رابعهم كلبهم، كذلك خمسة سادسهم كلبهم، التقدير فيه وسادسهم بواو العطف فحذفها واستدل على ذلك بقوله تعالى (وثامنهم كلبهم) فظهرت الواو التي كانت مقدرة في الجملتين المتقدمتين فدلّ على أن تقديره ورابعهم فحذفت الواو كقوله تعالى: ﴿صمٌ بكمٌ عميٌ﴾ [البقرة: ١٧، ١٧١]، وأصله صمٌ وبكمٌ وعميٌ بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿صمٌ وبكمٌ﴾ [الأنعام: ٣٩].

ونجد السيوطي يعلن رأيه في هذا النوع من العطف بقوله: ((قال عندي فيه وجه حسن وهو: أن الصفات تارة تنسق بحرف العطف، وتارة تذكر بغيره ولكل مقام معنى يناسبه، فإذا كان المقام مقام تعداد صفات من غير

نظر إلى جمع أو انفراد حسن إسقاط حرف العطف، وكذلك إذا أريد التنويع لعدم اجتماعهما أتى بالحرف أيضاً))[1].

وقد تبع المحدثون آراء المفسرين في الواو ونلحظ ذلك في قول الدكتور فاضل السامرائي مستعرضاً أقوال المفسرين القدامى بقوله: "الواو تفيد التوكيد والتحقيق كما صرّح المفسرون، أي: كأنها تدل على أن الذين قالوا إن أصحاب الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم هم الذين قالوا القول الصحيح الصواب ومنهم الزمخشري"[2].

الواو إذن هي واو الحال ولكنها أفادت التوكيد والتحقيق بأن هذا القول صحيح لأن الواو يؤتى بها إذا تباعد معنى الصفات للدلالة على التحقيق والاهتمام (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) وإذا اقترب معنى الصفات لا يؤتى بالواو (همّاز مشّاء بنميم) هنا الصفات متقاربة ولا يؤتى بالواو))[3].

وفسّرها الدكتور محمد داود في كتابه معجم الفروق الدلالية بقوله: ((زيدت الواو بعد السبعة، وهذه الواو سمّاها بعض المفسرين والنحاة: واو الثمانية، وهي مطردة بعد الرقم سبعة في القرآن الكريم، ومن ذلك آية الكهف المذكورة، وفي قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وفي قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

والعرب تقول: إنَّ الرقم سبعة هو نهاية العدد؛ ولذلك كثر ذكره في الأخبار للتعبير عن الكثرة، واعتبروا ما بعدها بدءاً للعدِّ من جديد، لذلك عُطف بالواو؛ والمتأمل فيما بعد الواو في آيتي التحريم والتوبة يجد أن الواو

(١) السيوطي – الجامع لأحكام القرآن ج١٣، ص٢٤٨.
(٢) السامرائي – فاضل السامرائي – لمسات بيانية في نصوص من التنزيل – ص ص ٥٩.
(٣) داود – محمد داود – معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم – ص ٦٣١–٦٣٢.

لا مناص من ورودها، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما شيءٌ واحد مكوّن من صفتين، ففُصِل بينهما بواو العطف.

وفي آية التحريم: الثيبات والأبكار نوعان مختلفان، فوجب الفصل بينهما بالواو)).

ومن هذا نستنتج أن الواو ذكرت مع العدد ثمانية لأنها الحق، وأفادت التوكيد والتحقيق، ونلاحظ حالها حال الواو في قوله تعالى في سورة التوبة ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

إذ أنَّ الواو ذكرت مع الصفة الأخيرة وهي الأشدّ على النفس والآخرين، وباقي الصفات الأولى كلها متقاربة لكن النهي عن المنكر يكون أشدّ على الإنسان وقد يؤدي إلى الإهانة والقتل أحياناً.

الثاني: بلاغة الاستغناء والذكر في الحرف القرآني:

هذا مبحث دقيق ووجه فريد يرجع إليه الإعجاز البياني في بعض وجوه ،لتعلقه بالحرف العربي في المفردة القرآنية ، لأن ذكر كلمة أو حذفها يكون بيناً مقارنة بحذف حرف أو ذكره ، كما أن الغرض البلاغي يحتاج لتأمل لإدراك سر الإعجاز فيه أو تأويل ذلك الغرض البلاغي من النص القرآني الكريم وسياقه العظيم .

لعلنا نتأمل هنا قصة ذكر الله تعالى فيها ذا القرنين وسدّه المتين العظيم، فقال تعالى مبيّناً عظمة ذلك السدّ ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾ [الكهف: ٩٧]؛ إذ استغنى عن ذكر التاء اولا في الفعل (اسطاعوا) مناسبة لخفة الفعل – فعل الظهور والعلو – على ذلك السد المهيب نافيا ذلك عنهم، بينما ذكر التاء مع فعل النقب الذي هو أشدّ وأقوى في قوله (استطاعوا)[1]، ولعلنا نفرّق بين أثر الفعلين في النفس كما يصورّهما المخطط الآتي:

(١) ملاك التأويل ، ج٢، ص٦٥٥، التعبير القرآني ص٧٥.

ملائمة الاستغناء والذكر لمستويات التعبير القرآني:

حذف الحرف = اسطاعوا استطاعوا = ذكر الحرف

فعل أخفّ = فعل الظهور فعل النقب = فعل أثقل

حذف الحرف وذكره = خفّة الفعل وثقله

ولو تأملنا هذين الفعلين اللذين وردا في آيةٍ واحدة نجد أنَّ ((إيثار صيغة (اسْتَفْعَل - اسْتَطاع) مع النقب لدلالة الصيغة بتمامها على الطلب والمحاولة، فهم وإن كانوا عاجزين عن نقب السّد إلّا أنهم يحاولون غير يائسين من نقبه؛ أما صيغة (اسْطاع) بحذف التاء، ففيها إيحاء بالعجز التام واليأس حتى من مجرد محاولة تسلق السد أو الصعود عليه؛ كما أنَّ في المخالفة بين اللفظين المتجاورين مراعاة لجرس الكلام ونغمه، وهي سمة جمالية من خصائص التعبير القرآني الذي تتعانق فيه الأصوات، والتراكيب، والدلالات، وتتآزر لإداء المعنى على أدقّ وجه وأكمل صورة))[1].

فنلاحظ في التعبير القرآني على الرغم من الاستغناء عن حرف أو ذكره لم يطرأ تغيير على معنى الكلمة بل ازداد بلاغة وبياناً لما اقتضاه سياق النص وحاله، بحيث حسُنَ الذكرُ في موطن والاستغناء في موطن آخر، وهذا يوضح وجه الإعجاز البياني في قوله تعالى في السد الذي بناه ذو القرنين حينما استعمل الفعل (استطاع) مرة بذكر التاء ومرة بحذفها على الرغم من أنَّ معنى (اسطاع) و(استطاع) واحد[2].

قال عبد القاهر الجرجاني وهو يتكلم على بلاغة الحذف "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن"[3].

(١) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص٤٢١.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٢١.

(٣) الجرجاني - دلائل الإعجاز، ص ١٠٣.

ومعنى كلامه هذا إن الحذف في الموطن الذي يقتضيه بلاغة، كما أن الذكر في الموطن الذي يقتضيه بلاغة، فلا يجوز للبليغ أن يذكر في موطن الحذف أو يحذف في موطن الذكر)[1].

وقد ذهب بعضهم إلى القول أنَّه في قصة ذي القرنين أن تعلق الفعل بالمفعول المفرد أخف من تعلقه بالمركب، و(أن يظهروه) مفعول مركب فناسب التخفيف، و(نقبا) مفعول مفرد فكمل لفظ الفعل معه لعدم المقتضى للتخفيف)[2].

وقد أجمع المفسرون على أن : (التاء حذفت في اسطاعوا للتخفيف)[3].

والسبب يعود إلى أن الظهور على السد والصعود فوقه أيسر من نقبه، فجيء بالفعل خفيفاً مع العمل الأخف وهو الصعود على السد ،وجيء بالفعل تاماً مع العمل الأثقل وهو النقب)[4].

أما الدكتور فاضل السامرائي فقد ذكر توجيهاً آخر مفاده ((أنه لما كان الصعود على السد يتطلب زمناً اقصر من إحداث النقب فيه حذف الفعل وقصّر منه ليتجانس النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث))[5].

ويرى الباحث في إثبات التاء وحذفها في الفعلين (اسطاعوا واستطاعوا) أن الحكمة من ذلك أنَ السياق القرآني اقتضى ذلك عند الحديث عن سد ذي القرنين الذي بناه ليمنع خروج يأجوج ومأجوج، فلو تمعنا في معنى يظهروه: يتسلقوه ...

ومعنى نقباً: نقضه بالحفر، فنجد التاء في ﴿فما اسطاعوا أنْ يظهروه﴾ لأنَّ المعنى هو عدم استطاعتهم تسلق السدّ لكونه أملساً خالياً من أي نتوء يمكن الإمساك به، " وبما ان التسلق يحتاج خفة ورشاقة ومهارة .. وكلما

(١) معاني النحو ، ج١ ص٢٤٧– ٢٤٨.
(٢) كشف المعاني ، ص ٢٤٤.
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ،ج ٢١ ، ص ١٧٢.
(٤) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، ص١٢.
(٥) السامرائي – قبسات من الإعجاز البياني في القرآن ، ص١٧٣.

كان الشخص أخف كان تسلقه أسهل .. جاء تخفيف بناء الفعل كأنه يشارك المتسلق في تحمل بعض أحماله ؛ أما ﴿ما استطاعوا له نقبا﴾ أثبت التاء لأن ثقب الجدار يحتاج معدات ثقيلة فكلما كانت المعدات أثقل كان النقب في السد أيسر .. وكذلك لأن النقب يحتاج إلى جهد عضلي اكبر وهنا جاء الإعجاز البياني في حذف التاء وإثباتها على وفق القاعدة البلاغية التي تقول (الزيادة في المبنى تفيد الزيادة في المعنى غالباً)[1].

ولعلَّ في ذلك تفسير للمقولة اللغوية الشهيرة ((الزيادة في المبنى تؤدي إلى الزيادة في المعنى))[2].

ولمّا كان القرآن في معانيه وأسلوبه جمالاً لأوجه كثيرة فقد استوعب هذا الوجه فيما استوعب، وقد تحرج بعض المفسرين من القول بمصطلح الحذف في القرآن فاستعاضوا عنه بالاستغناء أو ترك الذكر ورعاً منهم، سوى أنه لا يضّر ذلك في قولنا المتقدم في بيان الموازنة الأسلوبية بين الموضعين.

ثالثاً: بلاغة الاستغناء والذكر في الآية القرآنية:

قد يستغني القرآن الكريم عن ذكر حرف أو كلمة، وقد يظهر ذلك مع جملة أو جمل عدة لدلالة السياق على المعنى وظهوره، أو لتوافر قرينة لفظية ولعّلنا نلمس جمال التعبير القرآني، وروعة الإيجاز التي هي في غاية الإعجاز في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

فدلّ قول العلماء على الوجه البياني للإيجاز والاختصار عند الاستغناء عن جملة دلَّ عليها السياق في قوله ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ والتقدير خشية أن ترد عليهم أعمالهم، أو لا تقبل أعمالهم في معادلة المؤمن الجامعة بين الخوف والرجاء في إطار واحد يدل على التكثيف للمعنى)[3].

ولعلّنا نتخيل سائلاً يسأل لماذا قلوبهم وجلة؟ فيأتي الجواب بتقدير ما أسلفنا من ذكر.

(١) حسان ، تمام حسان.
(٢) المصدر السابق.
(٣) السامرائي – قبسات من الإعجاز البياني في القرآن ، ص١٧٣.

وفسّرها العبكري في كتابه التبيان في إعراب القرآن بقوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أي: وَجِلة من رجوعهم إلى ربهم فحذف حرف الجر"[1].

فنجد حتماً في دلالة الإيجاز في الآية ما يقدّم إيحاءً يُداعب الأذهان والعقول النيّرة ليعطي صفة أولئك الرجال الذين استحقوا معنى الرجولة بحقّ، فقال جلَّ وعز عنهم في موضعين من القرآن بصيغة التنكير (رجال) ﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وفي موضع آخر: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

أجل هذه صفة بليغة موجزة تعدّ من جوامع الكلّم لأولئك الرجال من الصحابة الأبرار (رضي الله عنهم) وهم ذاتهم من وصفوا بالتقوى، والهداية، والإيمان، وتعظيم أعمالهم، والعمل لأخراهم فقال تعالى: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾ [الذاريات: ١٧].

وهذه جوانب من بلاغة الاستغناء والذكر في بعض آي الذكر الحكيم.

رابعاً: التفصيل بعد الإجمال في آي الذكر الكريم:

يُعرف هذا عند البديعيين باللف و النشر، ويُعرّف بقولهم: (ذكر عدة أشياء على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما يناسب كل واحد، وما يتصل به من غير تعيين، اعتماداً على فهم المتلقي)[2].

ولعل معنى تسمية هذا اللون من البديع باسم (اللف و النشر) أن المتعدد المذكور على التفصيل أو الإجمال، انطوى فيه حكمه، لأنه اشتمل عليه من غير تصريح به، فسمي لذلك ب (اللف) أو (الطي)، فلما صُرح بعد ذلك بالحكم المطوي، كان كأنه نشر وإظهار لما كان له ولذلك سمي (بالنشر).

لعّلنا نطالع كثيراً من الآيات القرآنية ذات التفصيل بعد الإجمال ليتناسب السياق القرآني و حال المخاطبين، وهو ما يُعرف عند البلاغيين بالإطناب وهو مظهر من مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومن مظاهر الإعجاز البياني في

(١) العبكري – التبيان في إعراب القرآن.

(٢) جدوع، عزة محمد جدوع، البديع دراسة في البنية و الدلالة، مكتبة العنبي، ط٤ ١٤٣٨ه – ٢٠١٧م، ص ١٢١.

القرآن الكريم الإطناب: (وهو أداء المقصود بأكثر من العبارة المتعارفة)[1].

فالتفصيل بعد الإجمال لوناً بارزاً من ألوان الإطناب، وقد عرفه أحد الباحثين المحدثين بقوله: ((هو أسلوب بلاغي يرد فيه الكلام ابتداءً بإيجاز واختصار لغرض بلاغي، ثم يتبعه بيان وتفسير محدد بموطن، ويربطهما رابط معلوم))[2].

ولعل في سورة الحجر يتضح المقال، ويظهر الأسلوب في شمولية وتناسق وتناغم، متمثلا بما دلَّ عليه كلام أكثر المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَقَضَينا إليه ذلك الأمر أنَّ دابر هَؤلاء مَقْطُوعٌ مُصْبِحين﴾ [الحجر: ٦٦].

فبعد إجمال اللفظ (الأمر) يجيء بسط الكلام وتفصيله في آلية اقتضاها السياق تعريفاً بالأمر لأهميته وضرورة الإلمام بمعرفة كنهه، وقد نلمس مع الإجمال أغراضاً بلاغية منها:

أ ـ التشويق واللهفة:

فكأننا نسأل: وكيف يكون هذا الأمر؟ بينما تسكن قلوبنا وتهدأ نفوسنا عندما نعلم حقيقة ذلك بالتفصيل الذي يقدم جليل الفائدة في كل لفظة من ألفاظه في نظم معجز، وفي إبهامه وتفسيره تفخيمٌ للأمر، وتعظيمٌ له)[3].

ب ـ التنبيه بالإشارة الكنائية:

قال البقاعي: ((ولما تقرر أمر إهلاكهم من غير تصريح ولا تعيين لوقت، وأشار الى تعظيمه بالإشارة إليه بأداة البعد، ففسره بقوله: ﴿إن دابر هؤلاء﴾ أي: الحقيرين عند قدرتنا، وأشار بصيغة المفعول إلى عظمته سبحانه وسهولة الأمر عنده ﴿مقطوع مصبحين﴾ .. فهو كناية عن الاستئصال بأن آخرهم وأولهم في الأخذ سواء ..))[4].

(١) الجرجاني – التعريفات ، ص١٦.
(٢) جدوع ، عزة محمد جدوع ، البديع دراسة في البنية و الدلالة ، ص١٢١.
(٣) البقاعي ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور ، ج ١١ ، ص٧٣.
(٤) البقاعي ، نظم الدّرر في تناسب الآيات و السور ، ج ١١ ، ص٧٣.

وهذا ما تفرد به البقاعي إذ ذكر لفظ الكناية، وبيّن غرضها وهذا ما لم نجده عند الزمخشري إذ اكتفى بقوله: ((يعني يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبق منهم أحداً))[1].

فسياق الكلام يدل على الكناية لكن لم يصرح باسمها بصراحة وكذلك فعل القرطبي وابن جزي فلم يذكرا لفظ الكناية)[2].

ويعزى الدكتور عقيد خالد العزاوي ورود الكناية في قوله تعالى: ﴿وَقَضَينا إليه ذلك الأمر أنَّ دابر هَؤلاء مَقْطُوعٌ مُصْبحين﴾ [الحجر: ٦٦][3]. لغرض التنبيه على عظم القدرة وهي كناية عن نسبة لأنها تضمنت تخصيص الصفة وهي الاستئصال بالموصفين وهم قوم لوط، فالمراد إثبات أمر لآخر أو نفيه عنه وهنا أثبت صفة الاستئصال للموصوفين عن تعاليم الله وإتيان الفاحشة)[4].

ولو تأملنا قوله تعالى نجد الإعجاز البياني متمثلاً بالعرض القرآني: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ • وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٥-٦٦].

ج ـ التفخيم:

ونلحظ هذا الغرض البلاغي في الآية السابقة ، ومفاده إن الله تعالى قدر لقوم لوط عقوبة كبيرة عظيمة، فأوحى الله إلى نبيه لوط (عليه السلام) بما قضى وقدر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾[الحجر: ٦٦].

د ـ التهويل:

فوردت كلمة (الأمر) مجملة وأبهمها للتهويل والإشارة للتعظيم. أي: الأمر العظيم، ثم فصلها عندما بعدها من قوله تعالى: ﴿إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ [الحجر: ٦٦].

(١) الزمخشري – الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاؤيل – ج ص.
(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن :٦/٣٣٤ ،ابن مالك ،تسهيلا لفوائدوتكميل المقاصد: ١٤٧/٢ .
(٣) الأساليب البلاغية في تفسير نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور(اطروحة دكتوراه): ٢٣٢ .
(٤) المرجع السابق نفسه ص ٢٣٢ .

خامساً: سر إعجاز الكناية عن الندم في القرآن الكريم:

ولما كانت الكناية أعلى مباحث علم البيان بلاغة وأشدها أثراً على نفس المتلقي، حَفل التعبير القرآني بها في مواطن كثيرة تناسب حال المخاطبين والغرض من الخطاب القرآني المعجز، ومن تلك الحالات بيان حال النادم على شيء عظيم افتقده.

وجاء التعبير الكنائي عن الندم وشدته في موضعين من القرآن الكريم وناسب الهيئة المقام الذي وردت فيه، وحال النادم، فلما كان الندم في مقام الدنيا ممكن التعويض. قال تعالى: ﴿فأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيهِ عَلى مَا أَنْفَقَ فِيها﴾ [الكهف: ٤٢][1].

ولّما كان الأمر في مشهد من مشاهد يوم القيامة عظم فعل الندم الحسّي، وازداد ضراوة وشدّة؛ فقال جلَّ وعلا: ﴿يوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾ [الحجر: ٦٦].

وهنا نلحظ روعة الإعجاز البياني في اختيار فعل الندم المناسب للحال والمقام اللتين فيهما النادم من اللوعة والحسرة كما يوضح المخطط الآتي:

روعة الإعجاز في التعبير الكنائي عن الندم

تقليبُ الكفّين		عَضُّ اليدين (كليهما)
]]		[[
ندم دنيوي (فعل تداولي)	(مقابلة بين حاليّ الندم)	ندم أخروي (فعل شديد)
]]		[[
ممكن التعويض		غير ممكن التعويض

ودلّت أقوال المفسرين على شدة الندم في الآخرة للفعل الحاصل من المشرك الكافر وهو يقطع كلتا يدّيه، وليس واحدة منهما تعميقاً للمأساة التي حلّت به: وأنه يقلب كفيه ظهراً لبطن وهو أنه يبدي باطن كفه ثم يعوج كفه حتى يبدو ظاهرها وهي فعلة النادم المتحسر على شيء قد فاته المتأسف على

(١) الأساليب البلاغية في تفسير نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور (أطروحة دكتوراه): ٢٣٢.

فقدانه، ولمّا كان هذا الفعل كناية عن الندم عداه تعدية فعلى الندم[1]. و(اليدّ) هنا دلالة على الندم، على الرغم من أنَّ الندم يكون في القلب، ولكنه ذكر اليد لأنه يقال لمن تحصَّل على شيء: قد حصل في يده أمر كذا، لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد، قال تعالى: ﴿ذلك بما قدمت يداك وإن الله ليس بظلام للعبيد﴾ [الحج: ١٠].

وأيضاً: الندم؛ وإنْ حلَّ في القلب فأثره يظهر في البدن، لأنَّ النادم يعضّ يده، ويضرب إحدى يديه على الأخرى، قال تعالى: ﴿فَأَصبَحَ يُقَلبُ كَفَّيه عَلى ما أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]، أي: نَدِم ؛ وقوله تعالى : ﴿يوم يعض الظالم على يديه﴾ [الفرقان: ٢٧]، أي: من الندم ؛ والنادم يضع ذقنه في يده، وقيل: أصله من الاستأسار، وهو أن يضرب الرجل أو يصرعه فيرمي به من يده إلى الأرض ليأسره أو يكتفه، فالمرمي مسقوط به في يد الساقط[2] ولأن اليد هي الجارحة العظمى، فربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠].

فالندامة هي معنى التركيب كله، وأما الكناية فهي في بعض أجزاء المركب. فلو تأملنا الآية﴿يوم يعض الظالم على يديه﴾ [الحج: ١٠] ، نجد أن المقصود من هذه الآية ليس معنى اليدين، وإنما يقصد المعنى الخيالي الملازم لذكر (عضّ) الحقيقي، وهو حيث أنَّ (الندم الشديد) وهذا التعبير أسلوب بلاغي، وهو كناية عن شدّة الندامة وفرط التحسّر ؛ إذ لم يقل القرآن بعض أصابعه، أو بعض يده بل قال يعض يديه، وإن الفعل المضارع (يعض) الذي يفيد التجدد والتكرار، فهو لم يعض يده مرة واحدة فقط بل يتكرر منه العض ليديه ويتجدد، وهو ينسى الألم الناشئ من العضّ بسبب ما يرى من أهوال يوم القيامة[3]. فجاءت المناسبة بين الفعلين قرينة دالة على مقام النادم في

(١) ينظر: الكشاف: ٤/٣٤٥، والبحر المحيط: ٦/١٢٣ .
(٢) البحر المحيط ،ج٦ ص٤٥٤.
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ٤١.

الحالين، وتراوح الفعل بين ثقل وخفة انسجاماً مع الفعل المتندم عليه وشدته وصرامته، وهنا نلمس معنى البَلاغة في الكلام بحسب تعريف البلاغيين لها بأنها (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)[1]. ونتأمل كيف عبر القرآن بكلمات عن حال النادم وتحسره ، وصوره في أعظم صورة وأتمها على الإطلاق .

سادساً: ذكر أبي لهب بالكنية ودلالته البيانية العميقة:

تذكر العرب فلاناً بالكنية دلالة التعظيم لشخصه والتوقير له، وهذا ما تعارفوا عليه، بينما حصل العكس في البيان الإلهي الحكيم عندما ذكر الله تعالى أبا لهب بكنيته دلالة الإهانة والتحقير، فقال تعالى في معرض دعاء الخالق على المخلوق - وهو أشد ما يكون - ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ [المسد: ١] .

ولمّا كان التعريف بالكنية يشير إلى عظمة المُعرّف فقد عُرّف أبو لهب بكنيته ملائمة للسياق والمقام الذي ورد فيه في معرض الحديث عن إيعاد أبي لهب بالعذاب والإحراق إشارة إلى انه جهنمي كما دلّ كلام القزويني[2].

فانقلبت الميزّة الجمالية في الكنية من حال إلى أخرى مغايرة، فبعد أنْ كانت تدلُّ على الجمال والوضاءة انعكست إلىً حال موازية لحال العذاب بالنار ؛ فجوّ الآيات يدل على الإحراق والنار كما نطالعً بعدها في قوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب. . . . سيصلى ناراً ذات لهب﴾، وتكرار اللهب في سياق السورة مرتين ملحظ بياني يدل على روعة الإعجاز البياني في اختيار المفردة القرآنية ووضعها في موضعها المناسب من السياق لتشكل عمقاً دلالياً متحولاً من حال المدح الى الذّم والهجاء؛ وأنَّ التكرار في القرآن الكريم هو من أساليب الفصاحة في اللغة العربية لما ينطوي عليه من فوائد في الكلام، فإنَّ كلام البلغاء لا يتكرر عبثاً وإنّما لفوائد، ومعان جديدة، ولما كان هذا حال كلام العرب، فكلام الله أولى بذلك فإنك لا ترىً كلمة أو آية تكررت إلا لحكمةٍ وفائدةٍ[3].

(١) التعريفات :٢٧.

(٢) الخطيب ، الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص٤١.

(٣) نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور: ٣٢٨/٢٢ .

وقد استعمل التكرار في القرآن جرياً على عادة العرب في كلامهم، يقول الزَرْكشي: ((وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك، بل هو من محاسنها لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادةً لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كررته توكيداً، وكأنها تقدّم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء، وإنما نزل القرآن بلسانهم))[1].

ولفظة (لهب) أولى كنيته، اذ بذكر (اللهب) تصويراً وتشخيصاً للنار وإيحاء بتوقدها ولهيبها ؛ وهنا لفظة (لهب) في كنيته (أبي لهب) هي كناية عما يصير اليه، لأنه سيكون من أصحاب النار فكنى عنها باللهب وصاحبها أبو لهب، وهذا وجه من وجوه الإعجاز البياني ومفاده ما حُمل على الكناية لغرض التنبيه على المصير أو ما يؤول إليه، لأن مآله إلى النار، فوافقت حالته كنيته أو لأنَّ الاسم أشرف من الكنية فعدل إلى الأنقص)[2].

ومن يتأمل آيات القرآن الكريم يجد أنها الكنية الوحيدة المذكورة في القرآن جميعاً، إذ شهدت تحولاً عجيباً وانزياحاً واضحاً في دلالاتها إذ تحولت من التعظيم (المعنى المتداول للفظة) الى التحقير (المعنى السياقي) فتلاءم ذلك مع النّظم القرآني الفريد ودلَّ على روعة الإعجاز في البيان القصصي و التعبيري.

سابعاً: الخوف والجوع بين تقديم وتأخير:

إن ظاهرة التقديم من الظواهر الأسلوبية التي تحقق أغراضاً كثيرة في الجملة القرآنية ، ويظهر أثر هذا المنزع البلاغي فيما يُضيفه للمعنى من دقة، وإعجاز ، وعلى أسلوب الجملة من روعة وجمال ، وعلى المتلقي من لذة ومتعة لا حد لها . ومما هو ملاحظ في الأسلوب القرآني تلازم بعض الألفاظ،

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣/٩.

(٢) نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/٣٢٨ – ٢٣٩.

وتقديم واحدة منها في موطن ، وتأخيرها في موطن آخر ، مما يلفت نظر الخاصة لذلك. فمثلاً

قدم الله تعالى الخوف على الجوع في آية، وأخّره في أخرى مناسبة للمقام الذي وردا فيه، فقال جلّ وعز: ﴿ولنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع﴾ [البقرة: ١٥٥]. ذلك لأنَّ المقام مقام ابتلاء، واختبار، وامتحان شديد في محك يمتاز فيه الصالح من الطالح من الخلق، وينال بذلك المراتب والدرجات العلا، فتقديم الخوف على الجوع في معرض الخطاب القرآني أبلغ تأثيراً، بينما ناسب تقديم الجوع على الخوف في معرض الحديث عن التجارة، وطلب الرزق، وتأمينه عن طريق معاهدات الصلح (الإيلاف) فقال تعالى: ﴿لإيلاف قريش• إيلافهم رحلة الشتاء والصيف • فليعبدوا رب هذا البيت • الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ﴾ [قريش: ١-٤].

فالتقديم للجوع في هذا المقام أولى وأنسب، فهم طلبوا تأمين الرزق أولاً من وراء الإيلاف ثم أنهم أمنوا من الخوف ثانياً وهذا الغرض البياني هو ما يسميه البلاغيون ترتيب المعاني في النفس من جهة التأثير والقوة[1].

وإن أسلوب التقديم والتأخير واحداً من روائع بيان القرآن الكريم المعجز؛ إذ قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره من قوله تعالى: ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ [قريش: ٤].

((من هنا للتعليل، أي: لأجل الجوع كانوا قطاناً ببلد غير ذي زرع عرضة للجوع والخوف لولا لطف الله تعالى بهم وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام ،و(آمنهم من خوف) فضّلهم على العرب بكونهم يؤمنون حيث ما حلوا، فيقال: هؤلاء قطان بيت الله فلا يتعرض إليهم احد وغيرهم خائفون، وقال ابن عباس والضحّاك (وآمنهم من خوف) معناه من الجذام، فلا ترى بمكة مجذوماً. قال الزمخشري: والتنكير في (جوع) و(خوف) لشدّتهما، يعني أطعمهم بالرحلتين من جوعٍ شديد كانوا فيه قبلهما وآمنهم من خوفٍ عظيم

(١) الكشاف: ٦/٤٣٧ – ٤٣٨ .

وهو خوف أصحاب الفيل او خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم))[1].

وفسّر أبو حيان الأندلسي تقديم الجوع على الخوف في سورة البقرة، لأنَّ الجوع هو أشد من الخوف بأي تفسير يفسر به من القحط أو الفقر أو الحاجة الى الأكل إلاّ على تفسير الشافعي وهو صوم رمضان[2].

فهذا المتغير الأسلوبي اعني التقديم والتأخير، شهد نمطاً إعجازياً بيانياً للتعبير القرآني من جهة ترتيب المعاني في النفس حتى تقرّ في ذهن المتلقي، ويحصل له بها الفائدة على طريق هي ابلغ في السياق أوقع للحال وأنسب للمقال.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بحمده الأعمال الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وأبلغ المتكلمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد :

فقد أعجز الله تعالى العرب - وهم أهل البلاغة والبيان - أعجزهم بالقرآن فوقفوا أمامه وقفة إعجاب وانبهار، وشهدوا له بالريادة والسيادة، وشاء الله تعالى أنْ تكون وقفتنا مع بعض مظاهر ذلك الإعجاز البياني من وجوه الإعجاز وكان عديدها سبعة مشهورات في كتب المفسرين والعلماء والبلاغيين نخلص من النتائج أهمها :

أولاً: التعبير القرآني له عاداته الأسلوبية المعجزة وطرائقه المقنعة التى أعجزت كل لسان وتحدت كل بيان ، ومن ذلك أن العرب تستخدم الكنية للتعظيم ، والقرآن الكريم يستخدمها للإهانة والتحقير ملائمة للسياق وقرائن الأحوال.

ثانياً: شكلت محاور الدراسة مفاتيح للباحثين على وجه التوسع والاستقصاء

(١) البحر المحيط: ٨/ ٥١٦ - ٥١٧ .

(٢) البحر المحيط ، ج١ ، ص٦٢٤.

لمظاهر الإعجاز البياني التي لا تنقضي بل التي جاءت مصنفات العلماء أدلة شاخصة عليها، حتى عدَّ هذا النوع من أنواع الإعجاز ملمحاً قرآنياً بارزاً يستحق الدراسة عند طلبة العلم اليوم ، كما استحق الدرس والتحليل والتفسير عند علمائنا الأوائل الذين كان لهم فضل السبق والريادة.

ثالثاً: جاء أسلوب القرآن الكريم محاكياً أساليب العرب في الخطاب، إلّا أنه فاقهم بروعة البيان بدءاً من الحرف وانتهاءً بالجملة في سياق ذلك الخطاب ومناسبته المقام فكان الإعجاز البياني مظهراً واسع النطاق من أنواع الإعجاز الذي توارد ذكره عند العلماء ولا زال البحث فيه مفتوحاً إلى وقتنا هذا.

رابعاً: اليقين والاعتقاد التامان أنَّ كل كلمة، بل وحرف هما مقصودان في الاستعمال القرآني في موضع من السياق ولا يجوز الاستغناء عن شيء من كلام الله تعالى إلا لفائدة بلاغية سماها العلماء نكتة؛ فجاء كتاب الباقلاني موسوماً بـ(النكت في إعجاز القرآن) مصداقاً لذلك، وفي ذلك ردٌّ على المستشرقين الذين شككوا بلفظ القرآن من جهة النقص والزيادة.

خامساً: والدليل على أن القرآن من عند الله لا من عند البشر إعجازه لهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه.

وخلاصة القول إن البحث في آي الذكر الحكيم وإعجازها البياني عجيب لا تنقضي عجائبه ، ولازالت ألوانه البيانية تنتظر من يغوص في بحرها الزاخر ، ليستخرج دررها الفريدة ،ويُظهر جواهرها الثمينة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

١- أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨ه)، بتحقيق: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢- الأساليب البلاغية في تفسير نظمُ الدُّرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي(ت٨٨٥هـ): (أطروحة دكتوراه)، عقيد خالد العزاوي، جامعة بغداد – كلية التربية / ابن رشد، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م .

٣- أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ه)، صححها السيد محمد رشيد رضا دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

٤- أسلوب التفصيل بعد الإجمال وأغراضه في القرآن الكريم: (رسالة ماجستير) هاني خضر مصطفى أبو خضر، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس – فلسطين ،٢٠١٢م .

٥- الأشباه والنظائر في النحو: الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت٩١١ه)، بتحقيق: د. عبد العال سالم مكرم ، عالم الكتب – القاهرة، ط٣، ١٤٢٣ه - ٢٠٠٣ م.

٦- أضواء البيان في إيضاح القران بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، (د، ت) .

٧- الإعجاز البياني في ترتيب القرآن الكريم وسوره: د. احمد يوسف القاسم، مطبعة الأزهر، مصر، ط١، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٨- إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، بتحقيق السيد احمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٧٧م.

٩- إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني: محمد بن عبد العزيز العواجي، ط١، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ١٤٢٧ه.

١٠- الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني (ت٧٣٩ه) ،دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١، (د.ت).

١١- البحر المحيط: أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، بتحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م .

١٢- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، بتحقيق: ابو الفضل الدمياطي، دار الحديث – القاهرة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م .

١٣- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار - الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٤- البيان في غريب إعراب القرآن: أبو البركات الانباري (ت٥٧٧ه)، بتحقيق: د. طه عبد الحميد طه، مراجعة: مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ط١، ٢٠٠٦ م.

١٥- تاج العروس من جواهر القاموس: محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، بتحقيق: مصطفى حجازي وآخرين، سلسلة التراث العربي – الكويت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٦- التبيان في إعراب القرآن- إملاء ما من به الرحمن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين العُكبري (ت٦١٦هـ)، بتحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م .

١٧- التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣ه)، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م .

١٨- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك (ت٦٧٢هـ)، تحقيق: محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م .

١٩- التعبير القرآني: الدكتور فاضل السامرائي، دار عمار- الأردن، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م .
٢٠- التعريفات: لعلي بن محمَّد الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ط١، ٢٠٠٧ م .
٢١- تفسير القرآن العظيم: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المعروف بابن كثير(ت٧٧٤هـ)، بتحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٢٢- التفسير الكبير المسمى(مفاتيح الغيب): الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ): بإشراف: عبد الرحمن محمد، المطبعة المصرية، ط٣، ١٩٦٥م .
٢٣- جامع البيان في وجوه تأويل آي القران: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، بتحقيق: محمود محمد شاكر، دار الفكر - بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .
٢٤- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السُنّة وآي الفرقان: شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م .
٢٥ - دراسة المتشابه اللفظي في آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل: الدكتور محمد فاضل السامرائي، دار عمار - الاردن، ط ٣، ١٤٢١هـ-٢٠١١م.
٢٦- دُرَّة التنزيل وغُرَّة التأويل: الخطيب الاسكافي، نشر عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م .
٢٧- دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ)، بتحقيق: الدكتور محمد رضوان الداية والدكتور فايز الداية، دار قتيبة، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .

٢٨- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، عنيت بنشره: إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، (د.ت).
٢٩- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، (د،ت).
٣٠- صحيح البخاري: الإمام ابو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، ضبط :محمود حسن نصار، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي، بيروت – لبنان.
٣١- العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، بتحقيق: د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد ، ١٩٨٠م.
٣٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، ط٢، ١٩٦٤م.
٣٣- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .
٣٤- قبسات من الإعجاز البياني في القرآن: الدكتور عبد الرحيم خير الله الشريف، الشبكة العالمية للاتصالات(الانترنت) .
٣٥- كشف المعاني في المتشابه من المثاني: بدر الدين بن جماعة، تحقيق الدكتور عبد الجواد خلف، دار الوفاء، ط١، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م .
٣٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، بتحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض، مكتبة العكيبان – الرياض، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م .

٣٧- الكليات: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق:د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٣٨- الكناية والتعريض: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري(ت٤٢٩هـ)، دراسة وشرح وتحقيق: الدكتورة عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر، ١٩٩٨م .
٣٩- لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي (ت٧١١هـ)، دار صادر – بيروت ، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م .
٤٠- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الاردن، ط٣، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣ م .
٤١- معاني النحو: الدكتور فاضل صالح السامرائي، الجزءان الأول والثاني في مطبعة التعليم العالي في الموصل ١٩٨٦ –١٩٨٧م، والجزءان الثالث والرابع في مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد ،١٩٩١م .
٤٢- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: الدكتور محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر، ٢٠٠٨ م.
٤٣- مفاتيح الغيب: الفخر الرازي (ت٦٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، طهران، ط٢، (د. ت) .
٤٤- مفتاح العلوم: لأبي يعقوب محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ)، مطبعة المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، (د.ت).
٤٥- ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن الزبير الغرناطي (ت٧٠٨هـ)، بتحقيق: د. محمود كامل احمد، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م.
٤٦- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر – بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.

٤٧- نظم الدُّرر في تناسب الآي والسور: برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، بتحقيق: محمد عبد المعين خان، طبعة مجلس المعارف الإسلامية، حيدر آباد الدكن- الهند، ط١، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٤٨- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: علي بن عيسى الرمّاني (ت٣٨٤هـ)، بتحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨م.